دراسات في إعجاز القرآن الكريم ٣

نظم عطود المعاني وبناء أطرافها

بقلم

م.د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية (سابقا)

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فهذا العمل كما يبدو من العنوان: نظم عقود المعاني وبناء أطرافها، يتحدث عن مظهرين اثنين من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في هذا المجال.

لقد بدأت الدراسة بالتمهيد الذي تم فيه الإيعاز إلى حكمة الله تعالى التي اقتضت أن تكون معجزة كل رسول من الجنس الذي نبغ فيه قومه، ولهذا كانت معجزة محمد صلى الله عليه وسلم بيانية من أمة البيان، وانفردت بكونها معجزة ومنهجا معا، وانفردت بكونها خالدة، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين، إذ تكفل الله تعالى بحفظه لها ووحدها إلى يوم الدين، لأنه رسالة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول، فالله تعالى هو الذي تكفل بحفظ القرآن الكريم إلى يوم القيامة، وقد جاء هذا المعنى في الآية الكريمة التاسعة من سورة الحجر المكية في قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾، وقد تم الإيعاز إلى مظهرين من مظاهر إعجاز القرآن الكريم وهو أن قول القرآن الكريم هو الفصل إذا أعطاك، وكذبك إذا صنعك فقال لك إن الروح من أمر الله تعالى.

وفي القسم الأول من الدراسة المتعلق بنظم عقود المعاني، تحدثنا عن إعجاز القرآن الكريم بشأن كل عقد تم الحديث عن نظم حباته الفريد، ورصيد لؤلؤه النضيد.

إنا بشأن العدل في جزاء السيئة أمام رقم الآحاد، فمن

جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، وهي قابلة للمحو، وقابلة لأن يبدلها الله تعالى حسنة. وإنا بشأن الفضل في ثواب الحسنة أمام الحسنة الواحدة، وعشرة أمثالها، ومضاعفات الرقم سبعة، فتصل إلى السبعين، والسبعمئة، والسبعة الآلاف، إلى ما شاء الله تعالى من مضاعفات هذا الرقم في مجال الحسنات، وكذلك أمام الرقم مئة ومضاعفاته، وإنه من أجل تبيين كلٍّ من العدل في جزاء السيئة، والفضل في جزاء الحسنة، تمّ الحديث عن إيجاز آيتين كريمتين، الأولى من سورة الأنعام برقم ١٦٠، والأخرى من سورة البقرة برقم ٢٦١ وهما آيتان كريمتان قصيرتان.

وإنا بشأن عالم المواريث الذي جاء في ثلاث آيات من سورة النساء المدنية الكريمة، أو ما آنا إلى أن علم المواريث الأعدل والأرحم، الذي جاء في زهاء خمسة وأربعين آية واحدة من القرآن الكريم في ثلاث آيات كريمات، يقابله في أمم أخرى مجلدات بين السبعة المجلدات الضخمة والثمانية، ويشعر حكماء تلك الأمم بافتقاد كلٍّ من العدل والرحمة في قانون الميراث عندهم. وبعد اطلاع فريق منهم على الآيات الكريمات الثلاث في الميراث في الإسلام، وهو الميراث الذي يقاس بالعدل وبالرحمة، ما كان منهم إلا الدخول في دين الإسلام، الذي أكمله الله تعالى لنا ورضيه، وأتمّ به نعمته عز وجل علينا.

وقد أومأت الدراسة إلى بعض مظاهر إعجاز الآيات الكريمات الثلاث في علم المواريث، أو علم الفرائض.

وإنا بشأن عقد المحرمات من النساء، درسنا الآيتين

الكريمتين من سورة النساء المدنية الكريمة، وهما الثالثة والعشرون، والرابعة والعشرون، وقد أوما فيما مضى الحديث عن إعجاز الآيتين الكريمتين الى ترتيب المحرمات من النساء في عقد نضيد، يُرضي كل عقل، ويُشبع كل نفس، ويُطرب كل أذن، شأن كل العقود فيما نرى الآن نلزم هذا العقد يبدأ بالمحرمات الأول بالتحريم وهي الأم، ثم يأخذ سلكه المحرمات بترتيبهن مقدما الأول فالأول، حتى يحيط العقد بالمائة وبضع عشرة امرأة محرمة. وهن سبع نسبا، وسبع صهرا. وكما تجلى إعجاز القرآن الكريم في مجال إحصاء المحرمات من النساء، تجلى حينما أباح القرآن الكريم الزواج بهن من الرجال، بكل امرأة خارج عقد المحرمات، وذلك من قوله تعالى في الآية الكريمة الرابعة والعشرين من سورة النساء الكريمة

﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾

فقد قال القرآن الكريم هو الفصل في حال التحريم وحال التحليل.

وإننا بشأن العنوان: لآلئ تبديها الزوجة لزوجها من زينة، نكتفي بما ذكرنا عن فضل الله تعالى العظيم على الأزواج، إذ لا حدود لما تبديه الزوجة المصونة، والجوهرة المكنونة، لزوجها من زينة. ثم يستمر عقد المحارم النضيد، القريب منهم والبعيد، فنذكر حبات العقد، مقدما الأول فالأول. وما أكثر مظاهر إعجاز هذا العقد النضيد والفريد.

وإننا بشأن الاستدلال بالحاضر على الغائب نكتفي من

مثالين اثنين، أحدهما من سورة البقرة، وآخرهما من سورة يس. إن هذا المظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم يتجلى في سرد حلقات عقد المعنى حتى يأتي بك إلى الحلقة الأخيرة من العقد التي تراها بعينيك رأسك أو التي تعيشها فعلاً. فما لنا نرى القرية في سورة البقرة التي استبعد إعادة الحياة لها وسطها، أماتها الله تعالى مئة عام. أصاب الدين بها بعثها بعد موتها فتجلى في رفع الحق جل وعلا عظام حمارها البالية فعادت هيكلاً عظمياً، فسبحان الخالق بعد أن خلق. وإن الحديث عما كان الحق جل وعلا قادراً على أن يفعله بالطيرين الذين تحدثت عنهم سورة يس، فقد ختم العقد بآخر حلقاته التي يعيشها كل إنسان نسأل الله تعالى له في المستقبل أو سوف يعيشها، وهذه الحلقة تتجلى في مرحلة الضعف والشيبة، التي سوف يمر بها كل إنسان في مستقره إلى الله تعالى.

وفي القسم الثاني من الدراسة المتعلق ببناء أهرام المعاني، أود أن أشير إلى أن هذا المظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم خارج عن دائرة طاقة كبار الكتاب من البشر. إن أمير البيان العربي، أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ انتهت محاولته واجتهاداته في مجال التأثر بأسلوب القرآن الكريم عند محاولاته الموفقة في حدود الطاقة البشرية عند حدود نظمه لعقود المعاني منقطعاً سلكها عجيباً وفريداً في نظم مفردات اللغة العربية. إن الجاحظ نسيج وحده في هذا الميدان. ولكنا حينما

نتحدث عن إعجاز القرآن الكريم نقول أين شرف الجاحظ وغيره من عظماء الكتاب من شرف القرآن الكريم، في هذا المجال وفي غيره من المجالات.

وحيث إن البناء الصرفي يسهم في القرآن الكريم في رفع طاقة تفكير المتدبر واستعداداتهم، فقد انطلقنا سريعًا إلى ذكر مثال واحد من القرآن الكريم من بين آية مثلة الكثير فيه من هذا المجال، وهو مثال متوسط بين الطويل والقصير، وهذا المثال تمثل في عدة آيات كريمات من سورة يس المكية الكريمة.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يتفضل بقبول هذا العمل، وأن يوضع القبول له، وأن يبارك فيه، وأن يثيب عليه.. سائلًا الله تعالى أن يأخذ بأيدينا جميعًا إلى أقوم سبيل، إنه جل وعلا أعظم مسئول، وأكرم مأمول.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو ربه

صبيحة يوم الأحد التاسع من شهر رمضان المبارك ١٤٣٦هـ الموافق ٢٠١٥/٦/٢٨م بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

أستاذ اللغة والدراسات القرآنية بكلية البنات (سابقًا)

التمرين :

بيّن أن الله تعالى ستشتمل التمهيد على ما يلي.

أ - القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ب - معجزة موسى صلى الله عليه وسلم بيانية.

ج - إذا تمتلك القرآن الكريم شيئا فاقتنع بمنعه، وإذا صنعك فاغنم.

د - القرآن الكريم كتاب هداية.

٩ - القرآن الكريم المعجزة الكبرى لمحمد صلى الله عليه وسلم:

إن كبرى النعم التي يختص الله تعالى بها واحدا من عباده المصطفين هي نعمة الرسالة، يليها نعمة النبوة. ويشترك الرسول والنبي في كلام الملائكة لكل منهما، والإيحاء إليهما. ويزيد الرسول بأنه يبلغ ما خصه الله تعالى به من هدي.

ومحمد صلى الله عليه وسلم أحد أولي العزم الخمسة من الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وهم مرتبون تاريخيا على النحو التالي: نوح عليه السلام، فإبراهيم عليه السلام، فموسى عليه السلام، فعيسى عليه السلام، فمحمد صلى الله عليه وسلم. وأعلم أولي العزم من الرسل محمد صلى الله عليه وسلم. وقد نصت على هذه الحقيقة آيتان كريمتان من القرآن الكريم. الأولى هي الآية السابعة من سورة الأحزاب. قال تعالى (١): ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾. والآية الكريمة الأخرى هي الآية الكريمة الثالثة عشرة من سورة الشورى. قال تعالى (٢): ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. كبر على

(١) سورة الأحزاب ٧
(٢) سورة الشورى ١٣

المشركين ما تدعوهم إليه. الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب إليه

وقد أيد الله تعالى كل رسول بمعجزته ومعجزاته، التي يتحدى بها قومه. وذلك أن المعجزة أو الآية، هي من الفن الذي تفوق فيه قوم كل رسول. إن قوم موسى عليه السلام متفوقون في السحر، لذلك كانت آيات موسى عليه السلام التسع، تتحدى قومه في الفن الذي تفوقوا فيه، وهو السحر. وإن قوم عيسى عليه السلام متفوقون في الطب، لذلك كانت آيات عيسى عليه السلام، تتحدى قومه في الفن الذي تفوقوا فيه، وهو الطب. وأكبر آياته عليه الصلاة والسلام هي إحياؤه بإرادة الله تعالى الموتى. وإن قوم محمد صلى الله عليه وسلم متفوقون في البيان، لذلك كانت آية محمد صلى الله عليه وسلم الكبرى بيانية، وهي القرآن الكريم.

ومعجزة القرآن الكريم البيانية، تنفرد بها كل معجزات الرسل السابقين بأنها وحدها معجزة تجمع بين الإعجاز والإمتزاج معا، ولذلك هي معجزة خالدة بخلود الأيام والليالي.

إن معجزات موسى عليه السلام التسع معجزات حسية كان بها التحدي، أما منهج موسى عليه السلام فهو التوراة التي أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السلام، فيها هدى ونور،

وإن معجزات عيسى عليه السلام معجزات حسية كان بها التحدي، أما منهج عيسى عليه السلام فهو الإنجيل الذي أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السلام، فيه هدى ونور.

وهكذا معجزات كل المرسلين السابقين، عليهم جميعا صلاة الله تعالى وسلامه.

أما معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحدها فإنها معجزة تجمع بين الإعجاز والمنهج معا.

ومن هنا كانت معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحدها معجزة بيانية، ومن هنا كان القرآن الكريم معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الكبرى، ومن هنا كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وأشرف المرسلين، عليهم جميعا صلوات الله تعالى وسلامه. ولأجل ختم النبوة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم وحدة إلى يوم الدين. جاء في سورة الحجر قول الله تعالى (١): ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾. أما الكتب السماوية السابقة الموحى بها من الله تعالى فإنه عز وجل لم يتكفل بحفظها، إنما أوكل عز وجل مهمة حفظها للأحبار وهم العلماء، والرهبان، وهم رجال الدين، فلم يحفظوها.

---

(١) سورة الحجر ٩

ب - معجزة محمد صلى الله عليه وسلم البيانية:

القرآن الكريم كتاب هداية أولاً وآخراً.

والقرآن الكريم قد تحدى الله تعالى به الإنس والجن إلى يوم القيامة، بأن يأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو بسورة مثله، أو بسورة من مثله. ويلاحظ أن اتجاه التحدي من الصعب إلى السهل.

جاء في سورة الإسراء قوله تعالى (١):

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾

وجاء في سورة هود قوله تعالى (٢): ﴿ أم يقولون افتراه. قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾

وجاء في سورة يونس قوله تعالى (٣): ﴿ أم يقولون افتراه. قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وجاء في سورة البقرة قوله تعالى (٤): ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾

---

(١) سورة الإسراء ٨٨

(٢) سورة هود ١٣

(٣) سورة يونس ٣٨

(٤) سورة البقرة ٢٣ و ٢٤

إنّ القرآن الكريم معجزة كلّه، وإنّ القرآن الكريم قسمٌ كلّه، يحوم عظماء الكتّاب والمؤلّفين حول سفوح جباله، وإنّ قسم القرآن الكريم السابقة شفاوته إرتفاعاً بإرادة الله تعالى. وإنّ صفة القرآن الكريم، المعجزة الكبرى لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، هو ثلاثة أقسام، توحيد، وأحكام، وقصص (١) وأكبر الأقسام الثلاثة هو قسم التوحيد. وإنّ القسمين الآخرين يخدمان قسم التوحيد. وقد روي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد قال عن سورة الإخلاص: والّذي نفسي بيده إنّها تعدل ثلث القرآن. ورواه أبو داود والنسائي (٢) وقد أشار شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، إلى السبب في ذلك، وهو أنّ القرآن الكريم توحيد وأمر، وإلهاء وأحكام، وقصص، وسورة الإخلاص تتضمّن الثلث الذي هو التوحيد (٣)

وهذا الحديث رواه بروايته أكثر الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه (٤)

---

(١) التفسير البسيط لقرآن الكريم ٣/ ٤٥

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ٥٤٠

(٣) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٩ تحقيق صلاح الدين المنجد. بيروت. الطبعة الأولى ١٣٩٦ - ١٩٧٦ م

(٤) تفسير ابن كثير ٨/ ٥٤١

ج- إذا امتنعك القرآن الكريم شيئاً فامتنع منه، وإذا منحك فاغتنم:
القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي
غرائبه. إنه بحرٌ محيطٌ لا قرار له ولا ساحل.
كل شيء يعطيك إياه حكمة ونعمة ومنحة من
الله تعالى. إذا منحك فاستمسك بالخير الذي
ساقه الله تعالى إليك، وردّه عليك. وإذا
امتنعك شيئاً طلبته، فاعلم أن الخير كل
الخير في انصرافك عن هذا الشيء الذي
طلبت، والامتناع عن السعي وراء الشيء
الذي نهاك عن اتباعه. ومن إضاعة
الجهد وسعيه وراءه.

إن الناس إذا سألوا عن شيء،
وامتنعهم القرآن الكريم عن الخوض
فيه، فإنه من أمر الله تعالى. فإن
على البشر جميعاً أن يمتثلوا لهذا
المنع، وأن يطيعوا بجهودهم أن تذهب
سدى، وأن تمضي هدراً، وأن تضيع
هباءً لا خير فيه، ولا نفع وراءه.

ونضرب المثل على ذلك المنع
بسؤال يهود المدينة المنورة، على
نبينا أفضل الصلاة، وأتم السلام،
بسؤالهم محمداً صلى الله عليه وسلم
عن الروح.

ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم

لا يعلم أي شيء عن حقيقة الروح،
فقد سئل الله تعالى ما سأله اليهود
بشأنها، فكان الجواب من صيغة
آية كريمة من سورة الإسراء المدنية
المكية. ومن هذا الجواب يتبين الحق
جل علا من هذه الآية المكية بأن
الروح من أمر الله تعالى وحده لا
شريك له، وأن حقيقة الروح
مما استأثر الله تعالى بعلمه. فعلى
الناس أن يقبلوا هذا الجواب، وأن
يكتفوا ويقتنعوا به، وأن يكفوا عن
السؤال عن الروح مستقبلا، وعن
البحث عن حقيقتها، فإن من كل ذلك
ذهاب كل الجهود سدى.

جاء في سورة الإسراء (1) قوله
تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح
قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم
من العلم إلا قليلا﴾
المعنى، والله تعالى أعلم، ويسألونك
يا محمد، أيها الرسول المكرم، والنبي
العظيم، عن الروح وحقيقتها، قل
يا محمد للسائلين، إن الروح من أمر ربي جل وعلا

(1) سورة الإسراء ٨٥

وحده لا شريك له، وما استأثر بعلمه عز وجل.
وما أوتيتم من العلم إلا قليلا يا أيها الناس.

سبب النزول:

روى الإمام البخاري (١) عن عبد الله رضي الله عنه (٢) قال: بينما أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث (٣) وهو متكئ على عسيب (٤) إذ مر اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال ما رابكم إليه (٥) فقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح. فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا، فعلمت أنه يوحى إليه. فقمت مقامي (٦) فلما نزل الوحي قال: ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.

إن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يعلم إلا ما علمه الله تعالى. وإن حقيقة الروح مما استأثر الله تعالى بعلمه.

فما هو واجب الناس تجاه هذه الآية الكريمة؟

---

(١) فتح الباري ٨/١٠٤.
(٢) هو عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه. فتح الباري.
(٣) خرجت: من نخل (٤) العسيب: الجريدة التي لا خوص فيها.
(٥) ما رابكم إليه: من الريب، ويقال فيه: رابه كذا، وأرابه كذا: بمعنى. فتح الباري ٨/٢٠٢. والريب: الشك.
(٦) في رواية الاعتصام: "فلما خرجت عنه، أسر أدبا معه، لئلا يتشوش بقربه منه" فتح الباري ١٣/٢٧٨.

حراجهم أن يلتزموا بتوجيهها، ويأخذوا بنهديها، ثم يتأخوا من بذل الجهود الذي لا فائدة منه.

وما هو مصير الذين لم يهتدوا بنهديها، ولم يعملوا بموجب معناها. مصيرهم أجمعين الخيبة وراء السراب، وجنى الخراب، والإملاق والتذبذب، والبقية بما يندبون من الكذب. كل كاذب همه أن يروج لبضائعه، ويتملق على نظرائه الدجالين أمثاله.

ومن أعجب ما سمعت من أقوال بعض الحكماء المحققين على آرائهم الذين تجاوزوا حدودهم، ولم يتبعوا رشيدهم أنهم قالوا بشأن هذه الآراء من حق الروح، والله لا يوجد لها من يستريح، والله يعصمنا دائما من فرهات الريح، بأن رأي المتحررة السابق، في تعيين المتحررة اللاحق، بأن ذات الرأي البقم، بمثابة جوزة الهند التي طال عليها الزمن، فعدت فاسدة البدن، لذا يحلو كثير أحد الجوزتين بأختها العجوز. وقد صارت هذه العملية لدى كل متحررة صنعة، وعمدت لكل مدع صنعة

بقي علي أن أوصي إلى أن هذا الحكيم صاحب رأي فتنة المتأخر ينقض رأي المتقدم بشأن طبيعة الروح، وهو من سلطان الأماكن النائية عن مواطن زراعة جوز الهند، لذلك فالجوز الذي يصل إليه منه عطال عليه العمر، مثل جوز الهند الذي كان يأتينا قديما مع الحجاج القادمين من جنوب شرق آسيا، كي يستعينوا بجوز الهند الجاف على

الطعام، في أثناء أداء مناسك الحج إلى بيت الله تعالى الحرام.

بقي علينا أن نعرف أن جوز الهند الجديد، عبارة عن كتلة من ليف الزبادي الجديد. فإذا طال العمر بجوزة الهند أخذت تتقاوم الشيخوخة بشرب الماء من داخلها، حتى يجف الماء، وعندئذ يبدأ العود، ويقال إنها مرت عليها عهود، كي يصلح بها ضرب المثل، يحب كما يسير جوز الهند، بغض بها بعضهما، كما يحلو للملاح أن ينظر بمركبه الأمواج.

والحكمة التي ينبغي الأخذ بها، والتمسك بموجبها، هي تنبيه الآية الكريمة من سورة الإسراء، إلى أن الروح من أمر الله تعالى. وأن هذا المنع في الآية الكريمة من تجاوز معناها، مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم من مجال المنع، فينبغي على الناس أن يتخذوا بهديا القرآن الكريم، وإلا ضاعت جهودهم سدى.

لقد طال بقائي في أماكن زراعة جوز الهند، فما وجدت شخصا واحدا يكسر جوزة بأخرى، فهو لا يحتاج لذلك العمل مطلقا.

بقي علي أن أقول بأن موقف الإنسان من الروح ينبغي أن ينسحب على كل أمر طلب منه أن يقول بشأنه: الله تعالى أعلم.

د- القرآن الكريم كتاب هداية.

القرآن الكريم كتاب هداية أولا وآخرا.

وقد بين القرآن الكريم هذا الهدف واضحا جاء في سورة الإسراء (١) قوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما﴾

المعنى، والله تعالى أعلم: إن هذا القرآن الكريم يهدي بطريقة التي هي أقوم من كل طريقة، وأعدل وأصوب (٢) ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا، من الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وينذر الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعملون من أجلها، بأن الله تعالى أعد (٣) للذين لا يؤمنون بالآخرة عذابا أليما.

ومعروف أن سورة الفاتحة التي لا تصح الصلاة إلا بها، قد قسمها الحق جل وعلا بينه وبين عباده نصفين. النصف الأول هو تمجيد الله تعالى، والنصف الآخر هو دعاء العبد ربه عز وجل. وهذا النصف الآخر ينصب على إفراد العبد الله

---

(١) سورة الإسراء ٩ و ١٠

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطبري ١٥/٣٧

تعالى بالعبادة، وطلب العون، وطلب الهداية.

روى الإمام مسلم (١) في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن (٢) فهي خداج (٣) ثلاثا غير تمام. فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام. فقال: اقرأ بها في نفسك. فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تعالى: قسمت الصلاة (٤) بيني وبين عبدي نصفين. ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: الرحمن الرحيم. قال الله تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قال: مالك يوم الدين. قال: مجدني عبدي. (وقال مرة: فوض إلي عبدي) فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل.

(١) صحيح مسلم ١/٢٩٦ حديث رقم ٣٩٥
(٢) أم القرآن: سورة الفاتحة.
(٣) فهي خداج: فهي نقصان.
(٤) الصلاة: سورة الفاتحة.

وهذه أكثر الآيات الكريمات التي نصّت على غاية الهداية إلى الطريق القويم، والصراط المستقيم، بالقرآن الكريم. ومن هذه الآيات الكريمات قوله تعالى من سورة الشورى (1): ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا. ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا. وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض. ألا إلى الله تصير الأمور﴾.

والقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، وفي كل حقل تعلو قممه. ونحن نتحول مستعينين بالله تعالى إلى الحديث عن بعض هذه القمم.

فلنتحول إلى القسم الأول من الدراسة.

(1) سورة الشورى 52 و 53

أولاً: نظم عقود المعاني:

١ - العدل في جزاء السيئة، والفضل في ثواب الحسنة:

نود في هذه الجزئية من الدراسة أن نتحدث عن إعجاز القرآن الكريم من مجال توظيف علم الحساب، وعن عنه وبة استعمال القرآن الكريم لعملية الأرقام.

ونحن نود أن نتحدث أولا عن فضل الله تعالى في مجال الثواب على الحسنات، وعن عدله عز وجل في مجال الجزاء على السيئات.

ونحن سنجد حديثنا مرتبطا بقوله تعالى في سورة الأنعام (١) ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾ وبقوله تعالى في سورة البقرة (٢): ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة. والله يضاعف لمن يشاء. والله واسع عليم﴾

ونبدأ بتفسير الآيتين الكريمتين. ومعنى آية سورة الأنعام، والله تعالى أعلم: من جاء بالحسنة الواحدة، فله عند الله تعالى ثواب عشرة أمثالها، إذ إن الحسنة الواحدة بعشرة أمثالها عند الله تعالى. ومن جاء بالسيئة الواحدة فله عند الله تعالى جزاء سيئة واحدة فقط. وهكذا يتجلى فضل الله تعالى بشأن عمل الحسنة، كما يتجلى عدل الله تعالى بشأن عمل السيئة.

ولا أحد يظلم في حذف حسنة أو إضافة سيئة.

(١) سورة الأنعام ١٦٠

(٢) سورة البقرة ٢٦١

وروى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: إن ربكم عز وجل رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يمحوها الله عز وجل. ولا يهلك على الله إلا هالك. ورواه البخاري ومسلم والنسائي (١)

وهكذا يتبين أننا بشأن الآية الكريمة نتعامل مع رقمين اثنين، واحد وعشرة.

ومعنى آية سورة البقرة الكريمة، والله تعالى أعلم: صفة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله تعالى ومثلهم كمثل حبة واحدة من بر. وهذه الحبة من البر أنبتت سبع سنابل. ومعنى إنباتها سبع سنابل أن تخرج ساقا يتشعب منها سبع شعب، لكل واحدة سنبلة (٢) يقول أبو حيان (٣): "وخص سبعا من العدد لأنه لما ذكر، أقصى ما تخرجه الحبة من السنبلات" ويقول (٤): "قيل: واختص هذا العدد لأن

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٧٣

(٢) الكشاف ١/٢٩٧ والبحر المحيط ٢/٣٠٤

(٣) ٢/٣٠٤

(٤) البحر المحيط ٢/٣٠٤

السبع أكثر أعداد العشرة، والسبعين أكثر أعداد المائة، وسبع المائة أكثر أعداد الألف. والعرب تكثر بها وتراعي هذه الأعداد. قال تعالى: سبع سنابل، وسبع ليال، وسبع سنبلات، وسبع بقرات، وسبع سماوات، وسبع سنين، وإن تستغفر لهم سبعين مرة، ذكروا سبعون زنماً. وفي الحديث: إلى سبعمائة ضعف، إلى سبعة آلاف، إلى ما لا يحصى عددها إلا الله".

وهكذا يتبين أننا بشأن الآية الكريمة نتعامل في حق الحسنات مع حسنةٍ واحدةٍ يقوم بها الإنسان، وفي مقابل هذه الحسنة نحن نتعامل مع السبع المثوبات من الله تعالى مقابل هذه الحسنة الواحدة، وهذه السبع المثوبات التي ظهرت في صيغة السنابل السبع، وفي كل سنبلة مئة حبة تنمو بفضل الله تعالى فتبدو في صيغة سبعمائة حبة، أي سبعمائة حسنة. والله تعالى يضاعف هذه الحسنات أضعافاً مضاعفة، كما جاء في الحديث النبوي الشريف، وهاهي ذي الحسنات تصل إلى سبعة آلاف حسنة، إلى العدد من الحسنات الذي لا يحصيه إلا الله تعالى. أرأيت فضل الله تعالى يبرق إلى المزيد، وليس له حدود.

ولعلك تبينت سهولة إدراك هذه الأرقام، فنحن في سورة الأنعام أمام عشر حسنات، ونحن هنا أمام الرقم سبعة ومضاعفاته بفضل الله تعالى أضعافاً مضاعفة.

٢ - م - علم المواريث في ثلاث آيات كريمات :

من المعروف أن علم الحساب يكاد يكون أكثر العلوم حفاظاً ، لاعتماده على العقل وحده ، وبُعده عن العواطف والمشاعر . وإن قمة علم الحساب تتجلى في علم المواريث أو علم الفرائض .

وإن علم المواريث هذا ، وعلم الفرائض يمثل في الإسلام قمة علم الحساب ، وإن علم المواريث هذا جاء من القرآن الكريم في ثلاث آيات كريمات من سورة النساء المدنية الكريمة . وهذه الآيات الثلاث الكريمات هي الحادية عشرة ، والثانية عشرة والسادسة والسبعون بعد المائة .

وهذه الآيات الكريمات الثلاث في علم المواريث أو الفرائض ، تسهل حفظه وعذوبة ، وتُرضي كل عقل بفضوله حكمها ، وتشبع كل نفس بجليل معانيها ، وتطرب كل نفس بلذة بنصوصها ، واستقرار فواصلها .

وكيف لا يكون الأمر كذلك والقرآن الكريم كلام رب العالمين ، تنزل به الروح الأمين ، جبريل عليه السلام ، على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، بلسان عربي مبين .

إن علم المواريث أو علم الفرائض علم أنزله الله تعالى في ثلاث آيات كريمات من القرآن الكريم . فهذا العلم مُطهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . إن هذه الآيات الكريمات الثلاث تقع في سبعة عشر سطراً من القرآن الكريم ، أي تقع الآيات الكريمات الثلاث في

زهاء صفحة واحدة من صفحات المصحف الشريف.

إن الشركات تكفل لله تعالى، وحدة لا شريك له بتوزيعها، وإن الله سبحانه وتعالى لم يكلف مخلوقا بتوزيع الشركة، وفيهم حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن هذا العلم الذي تكفل فيه محمد صلى الله عليه وسلم بعلم الحساب أنزله الله تعالى في ثلاث آيات كريمات تشبه العقد المنضود، أو السلك المعقود.

إن المعاني قريبة يدركها كل قارئ وسامع لقرآن الكريم، وإن كل آية من آيات الثلاث الكريمات تميل إلى القصر، وإن معاني الآيات الكريمات الثلاث تشبه البحر المحيط الذي لا يكاد يعرف له قرار ولا ساحل.

إن علم المواريث أو علم الفرائض بها يكون أشرف ميادين علم الحساب، وإن العالم المتخصص في هذا العلم يحق أن يقال عنه إنه في حكم العملة النادرة.

وإن الله تعالى هو الذي أوحى بهذا العلم، وإن الله تعالى أوحى بهذا العلم في ثلاث آيات كريمات فقط يفهمها الصغير والكبير على حد سواء، ويفتتن بها فحولة كل حد منها، كل من قرأها أو سمعها.

بقي علي أن أشير إلى أن هذه الآيات الكريمات الثلاث في علم المواريث أو الفرائض، كانت بفضل الله تعالى، سببا من أسباب إسلام كثير من العلماء، ومن المفكرين، ومن أساطين علم القانون، في دنيا الله تعالى، الطويلة العريضة. وإذا الله أذن بعجائب

هذا الكتاب العزيز الذي لا ينقضي عجائبه، ولا يُجاز آياته

ولا تنقضي.

وقبل ذكر أحد هذه العجائب ندوّن هذه الآيات الكريمات. وهي ثلاث آيات. آيتان أولاً، الآيتان الكريمتان الحاديةَ عشرةَ، والثانيةَ عشرةَ من سورة النساء المدنية الكريمة. قال تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين. فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك. وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد. فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث (١) فإن كان له إخوة فلأمه السدس. من بعد وصية يوصي بها أو دين. آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا. فريضة من الله. إن الله كان عليمًا حكيمًا. ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد. فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن. من بعد وصية يوصين بها أو دين. ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد. فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم. من بعد وصية توصون بها أو دين. وإن كان رجل يورث كلالة (٢) أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس. فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث. من بعد وصية

(١) أي ولو ورثه الثلثان، فنحن بصدد أسلوب الاكتفاء.
(٢) الكلالة: من ليس له ولد ولا والد.

يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ. وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿

وَهَذِهِ هِيَ الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ وَالْأَخِيرَةُ مِنْ آيَاتِ الْمَوَارِيثِ الثَّلَاثِ. قَالَ تَعَالَى (١): ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ. وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ. فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ. وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ. يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

وَإِلَيْكَ مَا يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ الْإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ بِشَأْنِ آيَاتِ الْمَوَارِيثِ الثَّلَاثِ (٢): « فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِي الْفَرَائِضِ ثَلَاثَ آيَاتٍ مُفَصَّلَةٍ. ذَكَرَ فِي الْأُولَى الْأُصُولَ وَالْفُرُوعَ، وَذَكَرَ فِي الثَّانِيَةِ الْحَاشِيَةَ الَّتِي تَرِثُ بِالْفَرْضِ كَالزَّوْجَيْنِ وَوَلَدِ الْأُمِّ. وَفِي الثَّالِثَةِ الْحَاشِيَةَ الْوَارِثَةَ بِالتَّعْصِيبِ وَهُمُ الْإِخْوَةُ لِأَبَوَيْنِ أَوْ لِأَبٍ »

(١) سورة النساء ١٧٦

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ١٣/٣٤٢

ب - آياتُ المواريث السببُ في اعتناق الإسلام:

قرأتُ فيما قرأت عن الإنترنت عن أحد المواقع الإسلامية عن هداية الله تعالى بعضَ عباده لاعتناق دين الإسلام بعد أن قرأوا آيات الميراث الثلاث، وفهموها، وأدركوا أنّ علم الميراث أو علم الفرائض الذي تشتمل عليه ثلاث آياتٍ كريماتٍ من القرآن الكريم يجب أن يكون مُوحًى به مِنْ عِندِ اللهِ تعالى، مُنزِلِ التوراة على موسى عليه السلام، ومُنزِلِ الإنجيل على عيسى عليه السلام.

وتبدأ هذه التجربة المباركة حينما أراد أحد الحكام في الغرب أن يتعرف ممّن يثق به، بصفةٍ شخصيةٍ، حقيقةَ دين الإسلام، وهل هو مُوحًى به من الله تعالى، وهل محمدٌ صلى الله عليه وسلم صادقٌ فيما يدّعي.

لقد أفضى هذا الحاكم برغبته لعالمٍ قانونيٍّ يثق في علمه ورأيه. فغاب رجلُ القانون هذا مدّةً من الزمن، وعاد إليه مُجيبًا له على سؤاله، وكان جوابه بأنّ دين الإسلام حقٌّ، وأنه مُوحًى به من عند الله تعالى، وأنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم رسولُ ربِّ العالمين.

وبيّن رجل القانون هذا للحاكم الكثير من الأسباب التي أفضت به إلى هذه النتيجة الحاسمة، وأريد استنتاجه بذكر بعض الأدلة. ومن أهمّ هذه الأدلة أنّ في القرآن الكريم ثلاث آياتٍ كريماتٍ في زهاء الصفحة الواحدة. وهذه الآيات الكريمات الثلاث تشتمل على علم المواريث أو الفرائض كاملًا غير منقوص. هذا إلى ما اشتملت عليه

هذه الآيات الكريمات من تنزيل ورحمة، يفتقدهما قانون الميراث لديهم. وبيّن أنّ قانون الميراث لديهم يقع في أكثر من سبعة مجلدات أو ثمانية مجلدات ضخام. هذا إلى ما يشوب جملة الباقي من نقص، وما يتجلى في هذا القانون أحياناً من نأي عن العدل ومن الرحمة.

وأعلن هذا العالم في القانون بأنه اعتنق دين الإسلام، وأنّ الله تعالى قد هداه إلى الميثاق دين الإسلام الحق.

وإنّ عالم القانون هذا الذي هداه الله تعالى إلى الميثاق دين الإسلام، قد التقى بعالم آخر في مجال القانون في مناسبة، وتعمّد أن يتحدث في قانون الميراث في بلاده، وسأل زميله عن عدد المجلدات التي يقع فيها قانون الميراث في لغته فأجابه بأنّ عدد المجلدات بين سبعة مجلدات ضخام إلى ثمانية. فردّ عليه زميله بأنّ هناك قانوناً لميراث لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، هذا التسامه بكل مظاهر العدل والرحمة، ويقع في صفحة واحدة.

فلمّا رأى الزميل أنّا نقول زميله من باب المداعبة، حتى أوقفه على الآيات الثلاث الكريمات من القرآن الكريم، التي تشتمل على كامل علم الميراث أو الفرائض، وهو العلم المتصف بالعدل والرحمة. إنّ هذا الزميل حينما قرأ ترجمة الآيات الكريمات في الميراث، هداه الله تعالى إلى الميثاق دين الإسلام،

فأعلن إسلامه هو الآخر فقرأ، وبيّنه تعالى الحمد والمنة. وهذان العالمان القانونيان رمز لكل من قادة الحق.

وهكذا يتبين بفضل الله تعالى شيء من الدور العظيم لترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات العالم، في مجال الدعوة إلى الله تعالى، ونشر دين الإسلام العظيم، وإظهاره على الدين كله، كما وعد الله تعالى، ووعده الحق، وكما قال الله تعالى، وقوله الصدق، لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه سبحانه.

٣-٣- عقد المحرمات من النساء بداية بأمهات:

لقد جاء ذكر هؤلاء المحرمات من النساء في آيتين كريمتين من سورة النساء المدنية الكريمة، هما الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون. قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ. كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ. وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ الآية.

وقبل أن نتحدث عن هؤلاء المحرمات من النساء أن نسير معهن واحدة واحدة، سائلين الله دائماً العون والتوفيق. آمين.

١- الآيتان الكريمتان تحصران المحرمات من النساء، فلا يتزوج الرجل واحدة منهن مطلقاً.

٢- الآية الكريمة الأولى هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع والمحارم بالصهر(٢)

(١) سورة النساء ٢٣ و ٢٤

(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٦٢

عن ابن عباس قال: حُرِّمَتْ عليكم سبع نسبا وسبع صهرا، وقرأ: ﴿حُرِّمَتْ عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾ الآية (١) وهن الآية الكريمة تحريم سبع نسبا وسبع صهرا، وهن صدر الآية الكريمة الثالثة تمام السبع صهرا. قال تعالى: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾ أي وحرم عليكم من ذوات الأزواج المحصنات، وهن المتزوجات، ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ يعني إلا ما ملكتموهن بالسبي فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن، فإن الآية نزلت في ذلك (٣)

وهؤلاء هن المحرمات من النساء:

١- ﴿حُرِّمَتْ عليكم أمهاتكم﴾: أن تنكحوهن. وهن كل الأمهات الجدة من قبل الأب أو الأم (٤)

٢- وبناتكم: وهن كل البنات بنات الأولاد وإن سفلن (٥)

٣- وأخواتكم: من جهة الأب أو الأم (٦)

(١) تفسير ابن كثير ٢/٦١٢
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٦١٢
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٢٣
(٤) الجلالين.
(٥) الجلالين.
(٦) الجلالين.

٤- وعماتكم: أي أخوات آبائكم وكذلك أخوات أجدادكم (١)
٥- وخالاتكم: أي أخوات أمهاتكم وجداتكم (٢)
٦-٧- وبنات الأخ وبنات الأخت: ويلحق بهن أولادهن (٣)
٨- وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم: قبل استكمال الحولين: أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك. ولهذا ثبت في الصحيحين ... عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة. وفي لفظ لمسلم: يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب (٤)
٩- وأخواتكم من الرضاعة: ويلحق بذلك بالسنة البنات منها. وصح من أرضعتهن مرضعته والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت منها لحديث: يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، رواه البخاري ومسلم (٥)
١٠- وأمهات نسائكم: أم المرأة تحرم بمجرد العقد الصحيح على البنت (٦)
١١- وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم

---

(١) الجلالين.
(٢) الجلالين.
(٣) الجلالين.
(٤) الجلالين وتفسير ابن كثير ٢/٦١٩
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٦١٩
(٦) تفسير القرطبي ٥/٨٢ ١٦

بهذا .. اتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأم وإن لم تكن الربيبة من حجره (١) والربيبة: بنت المرأة ولا تحرم بمجرد العقد على أمها حتى يدخل بها. فإذا طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، ولهذا قال ﷻ وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم (٢) فمن تزوج بحرمة، هذا خاص بالربائب وحرمن (٣) وقد أجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له نكاح ابنتها (٣)

١٢- وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم: وأزواج أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم بخلاف من تبنيتموهم فليس لكم نكاح حلائلهم. وقد تزوج المصطفى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش مطلقة متبنّاه زيد بن حارثة وقد قال تعالى (٤): فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا. وكان أمر الله مفعولا.

١٣- وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف. إن الله

---

(١) تفسير القرطبي ٥/١٦٨٢
(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٢٧
(٣) تفسير القرطبي ٣/١٦٨٣
(٤) سورة الأحزاب ٣٧

كان غفورًا رحيمًا. فحرّم الجمع بين الأختين من نسب أو رضاع بالنكاح. وألحق بهما بالسنة الجمع بينهما وبين عمتها وخالتها (١)

وقد عفا الله سبحانه وتعالى عما سلف من الجاهلية منكم. وحرم كذلك الجمع بين الأختين في ملك اليمين (٢)

٢٤- والمحصنات من النساء: ذوات الأزواج (٣)

إلا ما ملكت أيمانكم: من السبي بالسيف فلكم وطؤهن وإن كان لهن أزواج في دار الحرب بعد استبرائهن (٤) يقول ابن عباس: كل امرأة لها زوج فهي عليك حرام إلا إماءكم إذا سبيتموهن ولها زوج بأرض الحرب فهي لك حلال إذا استبرأتها (٥)

كتاب الله عليكم: يعني تعالى ذكره كتابًا من الله عليكم، فأخرج (كتابًا) بمصدر من غير لفظه.

وإنما جاز ذلك لأن قوله تعالى: حرمت عليكم أمهاتكم إلى قوله: كتاب الله عليكم، بمعنى كتب الله تحريم ما حرم من ذلك وتحليل ما حلل منه فرض عليكم كتابًا (٦)

(١) الجلالين.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٣
(٣) تفسير الطبري ٥/٣
(٤) الجلالين.
(٥) تفسير الطبري ٥/٣
(٦) تفسير الطبري ٥/٤

وأُحِلَّ لكم ما وراء ذلكم: أحل لكم ما عدا هؤلاء
المحرمات المبينات في الآيتين اللتين بعد
أن تبتغيه بأموالكم ناكحين وملك يمين لا
سفاحا (١)
أن تبتغوا: تطلبوا النساء (٢)
محصنين: متزوجين (٣)
غير مسافحين: غير زانين (٤) والسفاح: الزنا (٥)

(١) تفسير الطبري ٥/٨
(٢) الجلالين
(٣) الجلالين
(٤) تفسير الطبري ٥/٨
(٥) تفسير الطبري ٥/٨

ب - من مظاهر إعجاز الآيتين الكريمتين :

بفضل الله تعالى نحن بصدد آيتين كريمتين من آيات الأحكام، وهما الآيتان الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون، من سورة النساء المدنية الكريمة.

وفي الآيتين الكريمتين يبين الحق جل وعلا المحرمات من النساء اللاتي لا يتزوج بهن المرء، كما اقتضت حكمته جل وعلا. وبشأن أحكام الحق جل وعلا يجري عن سورة المائدة (1) قوله تعالى: ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ أي لا أحد أحسن من الله تعالى حكماً.

والآيتان الكريمتان أحاطتا بالمحرمات من النساء، علماً وخبراً. إذ المحرمات من النساء يعرضن في ترتيب بديع، ونسق فريد، وعقد نضيد، يعرض كل عقل مفصول حكمه، ويحاول هذا العقل الحصيف جاهداً أن يتبين أسرار عقد الحكمة هذا.

والمحرمات من النساء يذكرن في أسلوب خلاب، كثير الماء والرونق، عظيم التدفق والانسياب، تشبع كل نفس بليغ النظم، ولطف الوقع، وحلو الطعم.

والمحرمات من النساء يبرزن في نغم بديع، ونسق لطيف، وانسجام فائق، لأن القرآن الكريم يجمع خير ما في كل من النثر والشعر

(1) سورة المائدة ٥٠

إن خير ما من الشعر انسياب الكلام، وتدفق المعاني، وحسن الأسلوب، وإن خير ما من الشعر نغم الكلام، وعذوبة النظم، وجمال حرف الروي، والتصوير الملهم، والقول المحكم.

وإليك بعض أسرار هذه الكلمة هنا:

١- إن المحرمات من النساء يبدأن بالأم. وإن الأم عند كل ابن من الوقار والتبجيل، ما ليس لغيرها من النساء، وفي القرآن أم، وأب، وأم الأم. إن للأم منزلة خاصة تجمع بين المحبة والإكبار، وبين المودة والتبجيل.

٢- وإن ابتداء المحرمات من النساء بالأم وصي الأول والآخر أن يبتدئ بها أمام كل عمل وعاطفة، ينتربنا إلى عملية الظهار، قبل الإسلام التي كان يتعمدها الجاهلي طلاقاً، وجعل الإسلام فيها الكفارة(١).

إن العربي الجاهلي كان يقول لزوجته الظاهر منها: أنت علي كظهر أمي، والمعنى المضمر الذي يريده: أنت علي كبطن أمي. فالعربي الجاهلي الظاهر من زوجته يسمو بها وبنفسه بذكر أمه، ويأبى بها إلى والدته، ولكنه يفر من ذكر البطن إلى ذكر الظهر. إن ذكر الأم يومئ إلى الطلاق، وإن ذكر الظهر بدلاً من ذكر البطن يومئ إلى منزلة الأم الفريدة، وعصام الأم السامي.

(١) سورة المجادلة ٣ و ٤

٣ - إن المتأمل لمحرجات من النساء، والترتيب العجيب من الآية يتبين الأمر يتبين بينك، وهو يتحول من امرأة محرمة إلى أخرى، أن الآية الكريمة تنبهنا إلى قريباته من النساء، وذلك يتحول السياق من المرأة القريبة إلى التي تليها من القرب، إنه لا يمكن بحال من الأحوال تغيير هذا الترتيب، إن في تغيير هذا الترتيب إفساداً لنسق الكلام الذي يرتهن بتقالي الزمان، مُنجِّماً يُبعِّد.

٤ - انظر إلى جذب الأم المرضعة بنت من الرضاع التي تليها في الترتيب.

٥ - وانظر إلى جذب الأم المرضعة بأم الزوجة.

٦ - وانظر إلى جذب الزوجة الأم للربيبة، وهي بنت الزوجة من زوج سابق.

٧ - وانظر إلى موضع الربيبة من زوج أمها. أنها في حجره مثل ابنته سواء بسواء.

٨ - وانظر إلى هذا القيد في حق أم الربيبة بالدخول دخلتم بهن، إنه إذا لم يكن ثمة دخول بالأم لموت أو طلاق حلت الربيبة لمن لم يدخل بأمها.

٩ - إن هذه الكيمة العظيمة باشتراط الدخول بالأم

وإذا تأملت التربية يؤكد هذا القول الطويل بحيث فإن لم تلاحظ ذلك فلتم بأن لا جناح عليكم في أنه قول لا يستغني عنه.

١٠ - وإن ذكر التربية وما يتعلق بها من أحوال دعا إلى ذكر زوجات الابن من الصلب.

١١ - إن القول بشأن زوجة الابن هو الذي من أصلابكم يبعد الابن المتبنى. وبذلك يكون هذا القول: هو الذين من أصلابكم هو امتداد لحكم الله تعالى الذي قضى على آفة التبني هذه الجاهلية: تلك الآفة التي أفسدت المجتمع الجاهلي. لقد كانت ظاهرة التبني فاشية في العصر الجاهلي. وإذا استقر الأمر أن المتبنى الابن من الصلب، واستقر على حقه، واطلع المتبنى على المحرمات، وعلى العورات، وعلى أسرار البيوتات، وقد شاء الحق جل وعلا أن يقضي على ظاهرة التبني الخطيرة، التي أفسدت المجتمع العربي الجاهلي. إن الحق جل وعلا قضى على ظاهرة التبني الفاسدة، وذلك في سورة الأحزاب المدنية الكريمة، في موضعين اثنين. الموضع الأول في الآيتين الكريمتين الرابعة والخامسة. إن القضاء هنا على هذه الظاهرة كان نظرياً فحقق الحق جل وعلا عن ظاهرة التبني وأمرنا أن نلحق المتبنى بأبيه. والموضع الثاني تم القضاء فيه عملياً على ظاهرة التبني، وذلك في الآية السابعة والثلاثين من سورة

١١ - سورة الأحزاب الكريمة. وذلك من قول الحق جل وعلا:
﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون
على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا
منهن وطرا. وكان أمر الله مفعولا ﴾
إن الحق جل وعلا زوج نبيه ﷺ صلى الله عليه
وسلم من فوق سبع سماوات زينب بنت جحش مطلقة
متبناه زيد بن حارثة، وبذلك تم القضاء عمليا على
ظاهرة التبني التي تنزل المتبنى منزلة الابن
من الصلب، وبذلك تأكد أن الربيب المتبنى غير
الربيب من الصلب، فيحل للمتبنى أن يتزوج
مطلقة متبناه بعد انقضاء عدتها، خلافا للعادة
الجاهلية التي تمنع ذلك زاعمة أن الدخيل المتبنى منزلة
الربيب من الصلب.
إن سورة الأحزاب تقول نظريا وعمليا إن
المتبنى غير الربيب من الصلب، وإن الآية
المحرمات من النساء في سورة النساء تؤكد هذا
المعنى بالقول: ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من
أصلابكم ﴾

١٢ - المرأة المحرمة الثالثة عشرة أشار إليها
قوله تعالى: ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين إلا
ما قد سلف ﴾ ويلاحظ عضو الله تعالى في القول ﴿ إلا ما قد سلف ﴾

١٣ - إن القول ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ استثناء منقطع في

الآية الكريمة الرابعة والعشرون: ﴿إن الله كان غفورا رحيما﴾

١٤- إن المرأة الرابعة عشرة تنال خير هذا الترتيب، وهذه الآية خير من الترتيب يوم ينادي المنادي إلى الدرجة الحادية في دنيا الواقع. قال تعالى: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾ المعنى: والمتزوجات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم بقتال. وهذه الآية خير من الترتيب وفي دنيا الواقع كلام كثير نوجزه فيما يلي. والله تعالى المستعان، وعليه التكلان. نقول وبالله تعالى التوفيق.

أرسل الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين ومرسلين. وقد أرسل الله تعالى كل رسول بشريعته الخاصة به. جاء في سورة المائدة قوله تعالى (١): ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ المعنى، والله تعالى أعلم: لكل أمة من الأمم جعلنا شرعة، أي شريعة، ومنهاجا: أي طريقا واضحا بيناه. والشرعة والشريعة أصل الطريق، وآخر الطريق، يقال: شرع في الأمر، أي بدأ العمل فيه. والشريعة: عين الماء التي يشرع الناس إليها. والشرعة والشريعة من الشرع وفي المعنى الاصطلاحي نهاية التسير في الطريق، وهذه الغاية توجيه الله تعالى. فلكل محمد صلى الله عليه وسلم شريعته الخاصة به التي تفضي إلى توحيد الله تعالى.

(١) سورة المائدة ٤٨

ثبت في صحيح البخاري من أبي هريرة أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال: نحن معاشر الأنبياء
إخوة لعلات (1) ديننا واحد. يعني بذلك التوحيد
الذي بعث الله به كل رسول أرسله وختمه كل
كتاب أنزله. وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي (2)
ورسل الله تعالى فريقان، فريق لم يغيروا، الله تعالى
عليه القتال، مثل عيسى عليه السلام، وفريق فرض
الله تعالى عليه القتال مثل محمد صلى الله عليه وسلم.
حينما كان محمد صلى الله عليه وسلم في الثلاث عشرة من
عمره أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، وظل محمد صلى
الله عليه وسلم يدعو في مكة المكرمة قومه والناس
أجمعين إلى دين الإسلام الذي بعثه الله تعالى به
مدة ثلاث عشرة سنة. فما آمن له قومه إلا قليلا
وآذوه وعذبوه وسخروا به وبأصحابه
ورضوان الله تعالى عليهم إلى أرض الحبشة مرتين اثنتين،
وما زاد قومه إلا نفورا وعنادا، حتى إنهم هموا بأشره
صلى الله عليه وسلم، أو قتله، أو إخراجه من بلده.
لقد رد الله تعالى مكر الكافرين إليهم. جاء في هذا المعنى في
سورة الأنفال (3) قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين
كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك. ويمكرون ويمكر الله.

(1) إخوة لعلات، بفتح العين: هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى.
(2) تفسير ابن كثير 3/121
(3) سورة الأنفال: 30

والله خير الماكرين.

وبسبب أذى المشركين لم يدخل في الإسلام إلا أفراد، ثلاثة وثمانون شخصا (١) وبسبب مشقة الأذى أمر الله عليه وسلم المسلمين أن يهاجروا إلى المدينة المنورة ففعلوا، وتوقفت هذه الهجرة بهجرته صلى الله عليه وسلم، وبهذه الهجرة بدأت الفترة المدنية، وهي الهجرة التي غيرت مجرى التاريخ للأرض كلها.

أذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في القتال لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر صفر في السنة الثانية من الهجرة (٢) وذلك في قوله تعالى في سورة الحج (٣): ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا. ولينصرن الله من ينصره. إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. ولله عاقبة الأمور﴾

وبفضل الله تعالى تمكن محمد صلى الله عليه وسلم من توحيد جزيرة العرب، وهي أكبر شبه جزيرة في الأرض.

---

(١) نظرية الإسلام وهديه ص ١٢٥ لأبي الأعلى المودودي بيروت ١٣٨٩ (١٩٧٩م)

(٢) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ١١٥ ط ٦ الشيخ محمد الخضري.

(٣) سورة الحج ٣٩ - ٤١